شخصية الزهاوى

بمناسبة مرور عام على وفاته

بقلم السيد احمد المغربى

لسنا نقرر شيئاً جديداً إذا قلنا بأن الزهاوى كان شخصية فذة متعددة النواحى ، تشهد على مدى نبوغه وعبقريته ، ذلك لأن الزهاوى لم يكن شاعراً مجدداً ، دقيقَ الحس مفتوحَ القلب مُرهَفَ السمع ، متقد العاطفة ، ثائرَ القلب فحسب ، بل كان إلى هذا كله فيلسوفا تعمق فى دراسة الفلسفة ونفذ إلى ما وراء المادة والطبيعة ، تخبر أحوالها وتفهم ما دق من أسرارها وخفاياها . وكان فى فلسفته متأثراً بأبى العلاء المعرى ، مترسماً خطاه ، متبعاً أساليبه ؛ ونظرة فى ملحمته « ثورة فى الجحيم » ومعارضتها برسالة الغفران ، تؤيد ماذهب إليه . ولا غروَ فان كلا من الشاعرين الفيلسوفين كان يسخرُ من التقاليد الموروثة ؛ ولماذا نذهب بعيداً والزهاوى نفسُه يعترف بتلمذته عليه وإعجابه به وهو يشكو إليه ما أصابه من ظلم وحيف :

وإن أكبرَ شيء فيك يُعجبنى ... سُخريةٌ بتقاليد . وعصيانُ
وأنكروا فيك الحاداً وزندقة ... وعلّ ما أنكروه فيك بُهتانُ
إنى تلذذتُ فى بيتى عليك وان ... أبلتْ عظامَك أزمان وأزمانُ
أصابنى فى زمانى ماأصابك من ... حيفٍ فما ردهذا الحيفَ إنسانُ

أما شعرُه فخر طليق ، لايتقيد بالسلاسل والاغلال ، ينزع فيه نحو الطبيعة المطلقة ، مخترقا التقاليد التى ورثها الأبناء عن الآباء ، خالياً من الصناعات اللفظية والخيالات الوهمية ، نزّاعاً إلى التجدد ، ثائراً على النظام ، متمردا على الأوهام

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه ... فليس خليقاً أن يقال له شعر
ما الشعر إلا شعورى جئت أعرضه ... فانقده نقدا شريفاً غير ذى خالِ
الشعرُ ما عاش دهرا بعد قائله ... وسار يجرى على الأفواه كالمثلِ
والشعرُ ما اهتز منه روحُ سامعه ... كمن تكهرب من سلك على عَفَلِ

فيه إلى اليوم ماقلدتُ من أحد ... وما على غير نفسى فيه متكلى
أفعمته حكماً تعلو ، وأمثلة ... تحلو ، فسُرّ به شعب وصفق لى
وقد أعود به إبان أنظمُه ... إذا تذكرت أيامى إلى الغزل

فالزهاوى كان كالبحترى شديدَ الزهو والاعجاب بشعره ، لأنه مرآة حقيقية تنعكس عليه نفسُه الشفافة وقلبُه الطيب :

إننى إن بكيت أبكى بشعرى ... ولقد أهديه إلى الأحقابِ
كل بيت منه إذا عصروه ... دمعة ثرّة على الآدابِ
بين شعرى ، ومايجيش بصدرى ... من شعور وشائج الأنسابِ
أنا عنه محدث وهو عنى ... وكلانا فى القول غيرُ محابِ

* * *

أما قريضى هذا فانه نفثاتُ
شعر له من شعورى والصدق مستنداتُ
وإنما صقلته الخطوبُ والنكباتُ

والزهاوى ، بالرغم من إعجابه بشعره وإيمانه بأنه شاعر الأجيال وأن شعرَه خالد لا يموت يعترف بأنه لم يكن دائم التحليق ، بل انه كثيرا ماكان يُسِف تبَعاً لحالته النفسية . . .

يا شعرُ أنت سماء ... أطير فيها بفكرى
طورا أسِف وطورا ... أعلو كتحليق نسرِ
ان لم تصور شعورى ... فلست ياشعر شعرى
من بعد موتى بحين ... سيعلم القومُ قدرى
فقد وقفت حياتى ... لهم وأفنيتُ عمرى

ويكاد يخلو شعرُ الزهاوى من الغزل والتشبيب ، والتغنى بمحاسن الحبيب ، وتبيان ما يقاسيه المحبون من ضروب الآلام والاسقام ، ووصف ما يتكبدونه من عذاب الهجر ، وألم الحرمان ولوْعة الأسى وحلاوة الوصل ، وأكبر الظن أنه لم يُتَحْ له أن يدخل فى شبابه فى زمرة المحبين ، لانشغاله فى نشر رسالته ، وأما مانقرؤه فى هذا السبيل فقلما يثيرُ اعجابنا أو يستدر عطفنا ورحمتنا ، وإذا ماتغزل بغادته «ليلى» فانما كان يتغزل بوطنه

ولعلّ خيرَ قصائده الغرامية هى القصيدة التى يصف فيها الحب . . .

أولُ الحب فى القلوب شرارَه ... تختفى تارة وتظهرُ تاره
ثم يرقى ، حتى يكون سراجاً ... لذويه ، فيه هدى وإناره
ثم يرقى ، حتى يكون مع الأيـــام ناراً حمراء ذاتَ حراره

ثم يرقى، حتى يكون اتوناً، بحراراته تذوبُ الحجاره
ثم يرقى، حتى يكون حريقاً فيه تهلك لأهله وخساره
ثم يرقى، حتى يمثل بركا ناً يرى الناس من بعيد نارَه
ثم يرقى، حتى يكون جحيما، عن تفاصيلها تضيق العباره

فأنت تلاحظ أن هذه القصيدة نفسها تغلبُ عليها روح التحليل العلمي الفلسفي، وما الحبُ إلا عاطفة هوجاء صاخبة عاصفة، تتبرأ من العلم، وتتهرب من الفلسفة!!

الزهاوي العالم

وناحية أخرى من شخصية الزهاوي تحتاج إلى عنايتنا واهتمامنا هي الناحية العلمية، فالزهاوي كان عالماً عبقرياً شُغِفَ بالابحاث العلمية، ولاسيما فيما يتعلق بالجاذبية. وله في هذا الصدد نظريات وآراء، إن لم تحُز موافقة العلماء المحدثين، فهي على الأقل تشهدُ على سعَة اطلاعه ومدى نبوغه، ذلك لأن الزهاوي لم ينشأ في بيئة علمية، ولم يتلق العلم في جامعات معروفة بل إن صل اليه، كان نتيجة بحثه وتفكيره...

وفي وُسعنا أن نوجز رأي الزهاوي في الجاذبية، بأن المادة لا تجذب المادة، بل إن المادة تدفع المادة، وعلى هذا فان الحجر الذي يسقط على الأرض، لا يسقط لجذب الأرض إياه، بل لدفع الموادِ في السماء إلى الأرض.

وهو يعللُ أنواع الجاذبيات بناموس واحد، وهو دفعُ المادة للمادة بسبب الكتروناتها التي تشعها بكثرة. وهو يفسرُ بان الحرارة والنورَ في الشموس يتولدان من الأثير المنعكس عن مراكزها، بعد جريانها اليها، حفظاً للموازنة التي لا تزال تختلُ بطرد الالكترونات له من بين الجواهر في كل جسم، مبيناً أن هذا الأثير الجاري إلى الاجرام هو الذي يدفع الأجسام اليها: فيزعمُ العلماء هذا الدفعَ الخارجي جذباً داخلياً.

ثم يشرح الزهاوي بمبدئه سبب حدوثِ الزلازل، وحالات ذوات الأذناب فيميط اللثامَ عن توجه أذنابها إلى خلاف جهة الشمس وعن سبب ابتعادها عن الشمس بعد أن تدور حولها دورة ناقصة، وعن بقاء القوة، وعن حقيقة الشمس وهو ينكر انحلال الشموس إلى السدم منكراً تولدها منها.

فلسفة الزهاوي - تحاليل «ثورة في الجحيم»

لعل فلسفة فقيدنا الكبير أظهر ما تكون في ملحمته الشهيرة «ثورة في الجحيم»، وهي تحفة فنية خالدة أثبت فيها آراءه الفلسفية ومعتقداته الدينية ونزعاته الاصلاحية، ولسنا نغالي إذ نقرر بأنها صورة حية صادقة للمبادىء السامية والمثل العليا التي وقف الزهاوي حياته على تحقيقها غير مكترث لما يعترض سبيله من العقبات، بل إن هذه العقبات ما كانت إلا لتزيد عزيمته مضاء وإيمانه إيمانا بتلك الرسالة المقدسة التي عمل على نشرها بين قومه.

وتتلخص هذه الرسالة في التحرر من التقاليد البالية والعادات الموروثة التي وقفت سداً منيعا دون تقدم الشرق العربي فجعلته يرسف في أغلال من الأوهام وقيود من الأحلام، هي ثورة على القديم، وانتصار للجديد في مختلف نواحي الحياة... والثورة تتطلب الهدم.. والزهاوي كان ثائراً هداما

ثورة الزهاوي في الجحيم: —

يتخيل شاعرنا نفسه ميتا قد احتواه القبر وإذا بمنكر ونكير يوقظانه من رقاده الأبدي فيعود إليه اشعوره ويشاهد أمامه نسرين هائلين تتطاير النارُ من عيونهما وتبدو ملامح الشرةِ على وجهيهما. لكل منهما أنف غليظ وفم واسع وبأيديهما أفاع غلاظ تتلوى وتدور

فيخورُ عزمه وتهنُ قواه ثم ما يلبث أن يستعيدَ جرأته، ويتمالك جأشه ويجيبَ على الأسئلة التي كان يوجهها إليه الملكان، فيعترفُ بأنه لم يأتِ في حياته أمراً خطيرا فقد مارس الشعرَ دفاعا عن الحق وهو يفتخر بأنه كان يخالف جمهرة الناس في الرأي والمعتقد فيثيرُ عليه نقمتهم فيُمْعِنون في ازدرائه واضطهاده حتى إنهم ليَهُمُّون مرة بقتله. مع أنه كان يعتقدُ بالوحي، ويؤمن بالأنبياء والمرسلين ويقوم بما يعرضه الاسلامُ على المؤمنين من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد

ثم يسأله أحدُ الملكين عن الحشرِ والميزان والحساب والصراط والجنان والجحيم، فيجيبه الزهاوي بأنه كان في شبابه مؤمنا كل الايمان فاذا بالشكوك تهبُ تلاحيه فيتعمقُ في العقائد

إلا نفسه لا تزالُ مضطربة حائرة ، فهو تارة مؤمن ، وهو تارة ملحد ، وهو يخشى الجحيم ولجج النار ، ويرجو من الله أن يرفق بعباده فانهم ضعاف لاحول لهم ولا صبر على العذاب .

وهو يبدى ارتيابه فى كل ما عجز العقلُ عن تأويله إلا أنه لايشك مطلقا بوجود الله فهو فى الجبال والوديان ، فى البر والبحر ، وهو واجبُ الوجود وواهبُ الوجود قد استوى على عرشه فى السماء إن أراد شيئا قال له كن فيكون

فيتهمه الملكان بالالحاد ويُمضّانه بالمقامع ضرباً وهو يستعطفهما فلا يعطفان عليه ، وهو يسترحمهما فلا يرحمان دمعه الغزير وجسده الدامى بل يصبان فوق رأسه قطراناً فائراً شوى رأسَه ووجهه ويطيلان عذابه حتى يغيب وعيه فاذا ما عاد إليه صوابه الفى نفسه موثق اليدين بحبال مفتولة لا يستطيع حراكا فيحمله الملكان ويطيران به فى الفضاء إلى الجنة حتى يزداد عذاب ضميره من حرمانه إياها ، ويبيح لها رضوانُ دخول الجنة ، وهنا تتجلى روعة الزهاوى الشعرية فى الوصف الدقيق الجذاب فيحلق فى سماء الفن ما شاء له التحليق ، ويسمو فى عالم الخيال الرفيع سمواً ليس بعده من سمو : —

كلُّ ما يرغبونَ فيه مُباح ... كلُّ ما يشتهونه ميسورُ
وعلى تلكم الأسرة حور ... فى حُلى لهـــا ونعمَ الحورُ
ليس يخشين فى المجانة عارا ... وإن اهتز تحتهن السرير
وكأن الولدان حين يطوفو ... ن على القوم لؤلؤ منثور
إئت ما شئته ولا تخش بأسا ... لا حرام فيها ولا محظور
فاذا ما اشتهيت طيراً هوى من ... غصنه مشوياً وجـــاء يزور
وإذا مارمت أن يحول لك التين ... دجاجاً أتى إليك يطير
ليس فيها موت ولا موبقات ... ليس فيها شمس ولا زمهرير
لا شتاء ولا خريف وصيف ... أترى أن الأرض ليست تدور
ولقد رمتُ شربةً من نمير ... فتيممته ففرَّ النمـــيرُ
وكأن الماء الذى شئت أن أشـــربه ... بابتعاده مأمور

ويتذكر بأنه مطرود ملعون ، لا يحق له أن يتمتع بما وُعد به المؤمنون المتقون ، فيرجو من الملكين أن يعودا به من حيث أتيا لأن ما يشاهده من النعيم يثيرُ أشجانه ويَهيجُ أحزانه فيُخرجانه من الجنة ويشدان وثاقه ويقذفان به فى جوف الجحيم وكأنَّ الجحيم حفرة بركا ... ن عظـــيم له فم مفغور

تدلعُ النارُ منه حمراءُ تلقى ... حمما راح كالشواظ يطـــيرُ
وأشدُّ العذاب ماكان فى الها ... وية السفلى حيث يطغى السعيرُ
الطعامُ الزقومُ فى كل يوم ... والشراب اليحمومُ واليحمورُ
ولهم فيها كلَّ يوم عذابٌ ... ولهم فيها كل يوم ثبورُ
ثم فيها عقاربٌ وأفاعٍ ... ثم فيها ضراغمٌ ونمورُ
وقدت نارُها تنزُ فتغلى ... أنفس فوق جمرها وتخورُ
ولقد كانت الوجوهُ من الصا ... لين سودا كأنهن القـيرُ
ولقد كانت الملامحُ تخفى ... ولقد كانت العيونُ تغورُ
لستُ انسى نيرانها مائجات ... تتلظى كأنهُنَّ بحورُ
ولقد صاح الخاطئون يريدو ... ن نصيرا لهم وعز النصيرُ
وتساوى أشرافهم والادانى ... وتساوى غنيهم والفقيرُ

ثم يعدد لنا الزهاوى العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة الذين رآهم فى الجحيم ، فيذكر لنا الفرزدق وجريرَ والأخطلَ والمتنبىَ والمعرىَ وبشاراً وأبا نواس والخيامَ ودتى وشكسبيرَ وأمرأ القيس .

أما بشار فكان حانقاً ثائراً مهتاجا وأما أبو نواس فكان كئيباً حزيناً ، على أن الخيام لم يشغلهُ عذاب الجحيم عن التغنى بالخمرة بصوت شجى يطرب له أهل الجحيم

حبذا خمرة تعين على النيـــران حتى اذا ذكتْ لا تضيرُ
اسقنى خمرة لعلى بها أر ... جع شيئاً مما سبتنى السعير
أنت لو كنت فى الجحيم بجنبى ... لم ترعنى نار ولا زمهرير

وكان سقراط أثبت القوم جأشاً يلقى خطبه على أصحابه واخدانه وعلى مقربة منه أفلاطون وارسطو وكوبرنيك الذى أثبت بان الأرض تدور حول الشمس ، ودروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء ، وهيكل وبخنر وسبنسر ورنان وروسو وفولتير وزرادشت ومزدك والكندى وابن سينا وابن رشد والحلاج وغيرهم كثيرون

لم أشاهد بعد التلفت فيها ... جاهلا ليس عنده تفكير
انما مثوى الجاهلين جنان ... شاهقات القصور فيها الحور

وكأن أهل الجحيم قد شعروا أخيرا بما يحيق بهم من العَسَفِ والحيف فعقدوا النيةَ على الثورة لتقويض دعائم الاستبداد ، فاخترعوا الآلات المدمرة والأدوات الهدامة واخترق صفوف الملايين أحد الشباب ووقف فيهم خطيباً يبين لهم بصوت جهورى

زعزع عاصف ما يقاسونه من الآلام، ويدعوهم إلى مقاومة القوة الغاشمة بالقوة الغاشمة دفاعاً عن حقوقهم المهضومة وذودا عن كرامتهم المثلومة. فهاج أهل الجحيم وماجوا وعلا منهم الضجيج، فاطفأوا جمرة الجحيم وزحفوا ثائرين هائجين ونشبت حرب ضروس بينهم وبين زبانية النار عاضد فيها الشياطين أهل الجحيم وانجدت الملائكة زبانية جهنم ورموا بالصواعق والرياح والأعصار، والبروق والرعد. والبحار والجبال والبراكين. وكانت الحرب بادى ذى بدء سجالا. الا انها اسفرت فى النهاية عن انتصار أهل الجحيم، فطاروا على ظهور الشياطين يطلبون الجنان، فاحتلوها وطردوا منها البله المساكين

ومن الانصاف للعلم والحقيقة قبل الانصاف للزهاوى أن نقرر هنا بأن الزهاوى لم يقصد من ثورته فى الجحيم الشك بوجود الله عزوجل كما ظن السوادُ الأعظم من بنى قومه وإنما كان مسلماً قوى الايمان إلى أقصى حدود الايمان والأمثلة على صحة ما نذهبُ اليه وافرة نوردُ منها ما يتسع له النطاق الذى حددناه لهذه الكلمة :

قال مادينك الذى كنت فى الدنيا ... عليه وأنت شيخ كبير
قلت : كان الاسلام دينى فيها ... وهو دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذى عبدتَ فقلت ... الله ربى وهو السميع البصير
مذهبى وحدة الوجود فلا كا ... ئن غير الله القديم القدير
أنا هذا ، فلا أبالى إذا ما ... اجمعت ثلة على تكفيرى
أهل عصرى لا يفقهون حديثى ... حبذا لو أتيت بعد عصور
أنا ما كفرت بكل عمرى بالكتاب المنزل
أنا لم أزل اشدو بنعت للنبى المرسل
يسائلنى عن مذهبى وعقيدتى ... فريق من الأشياخ ما أنا منهم
فقلت لهم أما السؤال فبارد ... وأما جوابى فهو أنى مسلم
ولكننى ما كنت يوماً مقلداً ... يرى أن حكم العقل فى الدين مأثم
فالقلب منى بالخرافات مولع ... ولا الرأس منى بالخرافات مفعم
لا درَّ درّ الجاهلين فانهم ... يرمون بالالحاد من لا يلحد
إن كان من يبدى الحقيقة ملحداً ... فليشهد الثقلان أنّ ملحد
أحمد البارى الذى يتساوى ... عنده إيمانى به وجحودى
كلنا مؤمن يسبح للرحمن فى ظل عرشه الممدود
إننى ما سجدت يوما لغير الله ... فالله وحده معبودى

(البقية فى العدد القادم)

أحمد المغربى

٨٠٢٥

٥ ـ دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

... والآن فلننظر إلى الجاحظ فى ضحكه، ولقد كان الجاحظ ضحوكا طلقا تستخفه النادرة فيقهقه ملء شدقيه، ويقصد إلى الأضحاك فيبلغ من ذلك غايته. وإنك لتجده فى ضحكه وإضحاكه ـ كما كان فى تهكمه وسخره ـ مطبوعا موهوبا خفيف الروح. لطيف الاشارة. ظريف الأداء، طريف المقصد، فهو فى إضحاكه يسلك السبيل اللاحب إلى القلب، ويصل إلى قرارة النفس فى ملاطفة وسهولة. وخفة وبراعة، وإنه ليهز المشاعر بالنادرة يبتدعها، ويشنى القلب بالملحة يرسلها، ولقد تصرمت السنون وخلت القرون وما زالت نوادر الرجل ومضاحيكه فى بطون الكتب إذا ماوقع عليها القارىء فلا يستطيع الامساك مهما كان فى وقاره، ومهما اعتورها بالنظر ورددها فى اللسان. وعلى أن النادرة لا يكون لها فى الاضحاك مكتوبة كمثل ما يكون لها إذا ماجرت تحت المعاينة، فان المكتوب لا يصور لك كل شىء، ولا يأتى لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه (١)، وأما إذا ما أخذ الرجل فى الضحك فأنه ينطلق فى غير احتشام، ويجرى فى الشوط إلى أبعد غاية. حدث عن نفسه قال: صحبنى محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلا، فلما صرت قرب منزله وكان أقرب إلى المسجد من منزلى، سألنى أن أبيت عنده، وقال أين تذهب فى هذا المطر والبرد، ومنزلى منزلك، وأنت فى ظلمة وليس معك نار، وعندى لبأ لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، فلت معه فأبطأ ساعة ثم جاءنى بجام لبأ وطبق تمر، فلما مددت قال يا أبا عثمان: إنه لبأ وبه غلظة، وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت فى السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرَفا، وما زال الغليل يسرع إليك، وأنت فى الأصل استَ بصاحب عشاء، فان أكلت اللبأ ولم تبالغ، كنت لا آكلا ولا تاركا وحرشت طباعك، ثم قطعت الأكل

(١) النجلاء ص ٧، ط السلفى